

غزوة يهود خيبر

قدمنا أنه كانت بقرب المدينة جاليات من بنى إسرائيل هجروا مواطنهم تفادياً من الاضطهادات الدينية ، ونزلوا إلى صقع من الأرض بعيد عن المنازعات المذهبية ، ليعيشوا هاتين بملتهم . فلما أرسل النبي ﷺ داعياً للإسلام ، وناعياً عليهم وعلى جميع أهل الديانات المخرفهم عن الدين الحق ، كان وقع ذلك أشد على اليهود من وقعه على العرب أنفسهم ، لأن كتابهم صرح لهم في آيات كثيرة منه بأن بنى إسرائيل سيكونون في مستقبل الزمان حكام الأمم ، ومرشدى الشعوب القوية إلى الحق ، وأن الحرب ستبطل بين الشر ، وسينبث فيهم روح جديد من وجوب التأخي والتعاون وحسن الزمالة ، فيكون لهم دين واحد ، وإله واحد تحت زعامة بنى إسرائيل . ولكن لما كان عدد اليهود في بلاد العرب لا يكفي لمكافحة الدين الناشئ في بلاد العرب ، الذى يؤكد أنه المعنى بهذه البشارات ، نشطوا لتأليب الجاهليين عليه ، ومنوهم بالعون والتأييد ، وقاموا هم بما تعهدوا به ، كما فعل بنو النضير وبنو قريظة ، وقد مر ذكرهم فيما سبق .

وكان يهود خيبر الذين نحن بصددهم أشد من جميع إخوانهم تهيحاً على الإسلام ، فصمد إليهم ^(١) النبي ﷺ في السنة السابعة من الهجرة . وخيبر تبعد عن المدينة نحو مائة وخمسين كيلو مترا إلى الشمال الغربى منها . وكان بنو إسرائيل اتخذوا فيها ثلاث مجموعات من الحصون ، وهى : حصون النُّظَاة ، وحصون الكَيْبِيَّة ، وحصون الشَّقْ ؛ المجموعة الأولى مؤلفة من ثلاث حصون ، والثانية من اثنين ، والثالثة من ثلاثة .

(١) صمده وصمد له وصمد إليه ، قصده ، ويطن قراء الصحف اليوم أن الصمود يعنى المقاومة وهو خطأ .

فلما كان المحرم من السنة السابعة للهجرة أمر النبي ﷺ بالصمود إلى يهود خيبر ، واستفر من حوله من الأعراب ، الذين كانوا معه بالحديبية ؛ ولما اكتمل عدد الجيش ولى على المدينة أحد أصحابه ، وخرج قاصداً خيبر ؛ ولما وصل إليها ، رفع جنوده أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فنهاهم ﷺ عن الصياح قائلاً لهم : « ارفقوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » .

هنا يجب أن ننبه أن من مميزات الإسلام أنه دين آداب عالية ، ووقار ومدنية ، مرماه إصلاح القلب وتطهير الباطن ، بعيداً عن الحماسة التظاهرية ، والتقاليد العامة ، حتى في المواطن التي قد يسمح كبار القواد لجنودهم بشيء من الخروج عن النظام ، تشجيعاً لهم على خوض غمرات المعارك الطاحنة . وهي مميزات لو قولت بما يفعله بعض المسلمين اليوم من التحلق للذكر وقوقا ، وعلى قارعات الطرق ، ومن سير مواكب دينية تحت الأعلام ، في حالة تصايح وتجاوب بالأناشيد ، لأخذ الإنسان العجب من هذا الانحراف الذي ذهب بأصحابه إلى الضد من الآداب الإسلامية العالية .

نعود إلى متابعة السيرة فنقول : بدأ المسلمون بمحاصرة المجموعة الأولى من حصون خيبر وتسمى (النظاة) ، فعسكروا بعيداً عن مرمى النبل ، وأمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم ليحملهم على التسليم ، فأتموا قطع أربعمئة نخلة ، ولما لم يحملهم ذلك على الخضوع وآثروا الدفاع ، منع رسول الله ﷺ القطع ، وأمر بالحملة على الحصن الأول ، فبدأوها بالناضلة بالسهم ، ولبثوا على ذلك سبعة أيام لم يبالوا من عدوهم شيئاً ، حتى كان ليل اليوم السابع ، فظفر حارس الجيش عمر بن الخطاب بيهودي خرج من الحصن متسللاً ، فأقى به إلى النبي ﷺ وقد غمكه الرعب ، فقال الأسير لمن حوله : إن أمتمنى دلتكم على ما فيه نجاحكم . فأمنوه على نفسه . فقال : « إن أهل هذا الحصن أدركهم الملل والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصون الشق (وهي المجموعة الثالثة) ، وسيخرجون لقتالكم غداً ، فإذا فتح عليكم

هذا الحصن غدا ، فإنى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات ^(١) ، ودروع
وسيوف ، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فإنكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل
الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن ، فتفتحه من يومك » .

فلما كان الغد أعطى النبي ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب وأمره أن يقاتل
الإسرائيليين ، فتوجه من فوره للقائهم ، ولما تراءى الفريقان ، بدأ القتال على عادتهم
بالمبارزة الفردية ، فخرج من اليهود ثلاثة رجال متعاقبين ، فقتل على منهم اثنين ،
وقتل الزبير بن العوام الثالث ، ثم حمل المسلمون على خصومهم حملة صادقة
فأزاحوهم عن مواقعهم ، ثم تبعوهم حتى لجأوا إلى الحصن الثانى من مجموعة الحصون
الأولى وكان اسمه (الصعب) ، ودخل المسلمون الحصن الأول فغنموا منه مقادير
كبيرة من الخبز والتمر . ثم تابعوا مقاتلتهم فى الحصن الذى لجأوا إليه . فنافح عنه
الإسرائيليون مستبسلين ، فارتد عنه المسلمون ، إلا الحباب بن المنذر وفرقة معه ،
قاتلوا قتالا شديدا حتى هزموا أعداءهم واقتحموا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه مقادير
وافرة من الطعام وعلف الدواب . فاضطر اليهود إلى النجوى إلى الحصن الثالث واسمه
حصن قلة ، وتبعهم المسلمون إليه ، فاستصعب عليهم فحاصروه ثلاثة أيام ، وفى
اليوم الرابع دهم يهودى على الجداول التى توصل الماء إلى ذلك الحصن ، فقطعوها
عليهم ، فاضطروا للخروج والمكافحة دونها ، فلم يقووا على رد المسلمين ، وانهمزوا
إلى المجموعة الثالثة من الحصون وتدعى حصون الشق ، فتبعهم المسلمون إليها ،
وقاتلوهم على أوطانها ، فخرج أهلها وقاتلوا قتالا شديدا ، ولكن أبأ دجاجة الأنصارى
ثمكّن وفرقة معه من اقتحام الحصن ، فوجد فيه المسلمون أثاثا كثيرا ومتاعا وغنا
وطعاما ، وهرب المنهمزون منه إلى الحصن الذى يليه من تلك المجموعة فامتنعوا فيه ،
وكان أهلهم أشد قومهم مناضلة بالسهم ، ورجما بالحجارة ، حتى أن رسول الله ﷺ
أصابه بعض ذلك .

(١) هى آلة كان المقاتلون القدماء يتخذونها لنقب أسوار المدن والحصون المنيعه ، وهى
عربة مغطاة يدخل فى جوفها الرجال ، ثم تدفع إلى جدران الحصون فيعملون على نهبها آمنين .

فاضطر المسلمون عند ذلك إلى نصب المنجنيق الذى غنموه من اليهود ، فوقع فى قلوب مقاتلتهم الرعب ، وهربوا منه من غير كبير عناء .

ثم تتبع المسلمون خصومهم إلى المجموعة الثالثة من الحصون ، وتدعى حصون الكتبية ، وبدأوا بأوطا فحاصروه عشرين ليلة ، ثم افتحوه ، ومنه سبيت صفية بنت حبي بن أخطب ، سيد بنى النضير من القبائل اليهودية ، ثم سار المسلمون لحصار الحصنين الباقيين من تلك المجموعة ، فلم يقاوم أهلها ، وسلموا طالين حقن دمائهم ، واخرجوا من أرضهم بأهلهم وأولادهم ، غير آخذين من أمتعتهم إلا ثوبا على أجسادهم ، وغنم المسلمون من هذا الحصن أربعمئة سيف ، ومائة درع ، وألف رمح ، وخمسمئة قوس . وعثر المسلمون على حلى لحيى بن أخطب فيها أساور ودمالج وخلاخيل وأقراط وخواتيم من الذهب ، وعقود من الأحجار الكريمة . فأمر النبي ﷺ بقتل كنانة بن أبى الحقيق لإنكاره وجود هذه الحلى . ووجدت صحف من التوراة فسلمت لأصحابها .

ولما عاد المسلمون من هذه الغزوة إلى المدينة ، قدم من الحبشة المهاجرون الذين بقوا فى الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبى طالب ، وكان فيهم أبو موسى الأشعرى وجماعة من قومه ، بعد أن أقاموا فى بلاد الحبشة عشر سنين .

الاستيلاء على قَدَك وصلح ثيماء :

بعد رجوع النبي ﷺ المدينة أرسل رسولا يطلب من يهود قَدَك الانقياد والطاعة . وفدك هذا حصن قريب من خيبر على بعد ست ليال من المدينة ، فصالحوه على أن يحقن دماءهم وأن يتجردوا هم من أموالهم .

ولما نعى إلى يهود ثيماء ، وهى قرية على ثمان مراحل من المدينة ، ما حل بيهود خيبر ، صالحوا النبي ﷺ على دفع الجزية ، ومكتنوا فى بلادهم لم يزعجهم فيها أحد .

فتح وادى القرى :

بعد أن تمت للنبي ﷺ كل هذه الفتوح ، أرسل إلى يهود وادى القرى يطلب إليهم الانقياد والطاعة ، فأبوا القتال ، فقاتلهم المسلمون ، وهزموهم ، وحصلوا منهم على مغنم كثيرة ، وترك رسول الله الأرض في أيدي أهلها ليزرعوها على شطر مما يخرج منها .

أربع سرايا :

في هذه السنة وهى السابعة من الهجرة ، بلغ النبي ﷺ أن رجالا من بنى هوازن يتصدون للمسلمين ، فأرسل إليهم ثلاثين رجلا تحت قيادة عمر بن الخطاب ، فلما علم المشركون بذلك لاذوا بالفرار .

ثم أرسل فصيلة من الجنود تحت قيادة بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بجوار فذك ، فلما وصلوا إلى محلهم لم يجدوا أحدا فاستاقوا ماشيتهم ، وبلغ القوم ما حدث ، وكانوا فى الوادى فتعقبوا هذه الفصيلة حتى أدركوها ليلا وهى راجعة إلى مكة بما غنمت ، فتراموا بالنبل ، ولما تنفس الصباح اقتتل الفريقان قتالا مرا حتى قتل أكثر رجال الفصيلة ، وجرح قائدهم بشير بن سعد جرحا بليغا ، فتحامل حتى أتى إلى رسول الله فأخبره بما تم .

وأرسل رسول الله فصيلة من الجند إلى أهل الميضة وهى بناحية نجد ، تحت قيادة غالب بن عبيد الله الليثى ، فقاتلوا القوم قتالا شديدا .

وفى هذه الواقعة تصدى أسامة بن زيد لرجل من المشركين فلما تمكن منه ، وأدرك الرجل أنه هالك لا محالة ، لجأ إلى ما ظنه أنه يدرأ عنه السيف ، وهو أن يقول لا إله إلا الله ، فأدرك أسامة أن الرجل لم يقل ذلك إلا تخلصا من القتل ، فلم يعبا بما قال وقتله .

فلما رجعت هذه الفصيلة إلى المدينة ، وأخبر رجالها رسول الله بما حدث

من أسامة بن زيد ، استقدمه إليه وقال له : أتقتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، فكيف بلا إله إلا الله ؟

قال أسامة : يا رسول الله إنما قاطها متعوذا من القتل .

فقال له ﷺ : فهلّا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

قال أسامة : يا رسول الله استغفر لى .

قال عليه السلام : فكيف بلا إله إلا الله ، وما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم ، ونزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

ثم أمر رسول الله أسامة أن يعتق رقبة ، كفارة لما فعل .

هنا لا نستطيع أن ندع هذا الحادث الصغير في ذاته ، الجليل في مؤداه وأثره ، بدون تعليق ، لأنه يدل على الروح السلمية التي كانت تتولى المسلمين في مجاهدتهم للمشركين . وهو يدل دلالة قاطعة على أن الجهاد في الإسلام لم يشرع تحت إملاء عاطفة وحشية ، كالتي تتسلط على طلاب المغائم بواسطة انغارات ، ولا على محبي التبسط في الملك دون مراعاة مبدأ إنساني يراد من ورائه إحداث إصلاح عام للبشر . بل شرع تحت سلطان روح علوية مصاحبة لشعور سام بالحقوق الطبيعية لكل فرد من بنى الإنسان ، ولكل جماعة من جماعاته ، ولولا أن الانتقالات الأدبية والاجتماعية لا تتم إلا على هذا النحو من التندافع والتناحر ، وفقا لللسنة الطبيعية التي تشاهد في جميع أدوار التاريخ ، وفي كل عهود التطورات الإنسانية ، لسبق الإسلام كل داعٍ للإسلام في الأرض . ناهيك أنه احتاط لعهد استقرار السلام العام حين يتقرر بين الأمم ، مبدأ لا يجوز أن يغفله المتكلمون في هذه الناحية من الشؤون الاجتماعية ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) ،

(١) سورة النساء ، من الآية (٩٤) .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦١) .

وبناء على هذا الأساس ، فإن الدعوة العامة التي ستتلو هذه الحرب العالمية المستعرة ، سيكون الغرض منها إبطال الحرب ، عند ذاك يجد المسلمون أنفسهم في مجبوحة من الأمر ، بل يجدون ما يفخرون به أمام الأمم ، حين يفضون إليهم بأن دينهم قد توقع حدوث هذه الدعوة قبل وقوعها بنحو أربعة عشر قرناً . وفي هذا أكبر داحض لادعاءات خصوم الإسلام بأنه دين تناهر وعدوان ، لا دين أخوة وسلام .

نعود إلى سرد الحوادث التاريخية فنقول :

وبلغ النبي ﷺ أن طاغية من طواغى الجاهلية يدعى عُيَيْنَةُ بن حصن ، تمالاً مع جماعة من بنى غطفان كانوا يقيمون قريبا من أرض خيبر ، للإغارة على المدينة ، فأرسل إليهم فصيلة عسكرية مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة بشير بن سعد الأنصاري ، فلما وصلوا إلى محلتهم استاقوا ماشيتهم ، ولما بلغ الغطفانيون الخبر لحقوا بعليا بلادهم إلا اثنين منهما سلما ، وعاد المسلمون بغنائمهم إلى المدينة (*) .

★ ★ ★

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثالث ، ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ .

عمرة القضاء وخمس سرايا وغزوة مؤتة

يذكر قارئو هذه السيرة أن النبي ﷺ قصد في السنة السادسة من الهجرة إلى مكة على رأس ألف وخمسمائه من أصحابه قاصدين العمرة ، وهي الطواف بالبيت ، وكانت في غير وقت الحج ، فمنعته قريش من الدخول وآثرت أن تدخل معه في حرب على أن تسمح له بغشيان مدينتها وهي فيها . ولما لم يكن قصد النبي أن يخرج للحرب ، ولم يأخذ لها عدتها ، رأى أن يفاوض قريشا في الأمر ، فترددت بينها وبينه السفارات ، حتى استقر الرأي على أن يرجع النبي ﷺ وصحبه عنهم ذلك ، ويعودوا فيما يليه ويدخلوا مكة معتمرين ؛ ويذكر قراؤنا أننا قلنا إن هذا الاتفاق لم يرض أحدا من المسلمين ، وقبلوه طاعة للرسول إلا أبا بكر ، وقلنا إنه كان من أثره أن دخل في الإسلام رجالات من قريش بدون قتال ، كان في مثلهم في حظيرته قوة له ، وعلو لكلمته ، لأن في الدخول فيه طوعية ، وخاصة من آحاد يعتبرون قادة للجاهليين ، معنى أرقى من دخولهم فيه كرها ، وهذه الحكمة تجلت للصحاب ، فاعتبروا صلح الحديبية الذي كانوا أنفوا منه ، أحفل صلح بالنتائج العظيمة ، والثمرات الطيبة .

لما حال الحول على ذلك الصلح ، خرج النبي ﷺ ومن كانوا معه في العام السابق ، قاصدين مكة لقضاء العمرة التي صدّوا عنها عام أول ، واستخلف على المدينة أباذر الغفاري . ولكنهم في هذه الدفعة أخذوا أهبتهم للحرب خشية أن يبدو من قريش إخلاف للعهد . وكان عدد خياله مائة تحت قيادة بشير بن سعد . وبدأ ﷺ بالإحرام للعمرة من باب مسجده بالمدينة .

ولما انتهى إلى موضع ذى الخليفة قدم الخيالة أمامه . فقبل له يا رسول الله تحمل السلاح وقد شرطوا عليك أن لا تحمله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تدخل الحرم به ، ولكن يكون قريبا منه ، فإن هاجنا هائج فزعنا له » .

فلما وصل إلى مكان يدعى مَرُّ الظُّهْران ، قابله رجال من قريش ، ففزعوا

بما رأوا من استعداد المسلمين للقتال ، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم بما رأوا ، وجاءه نفر منهم وسأله عما يقصده من هذه المظاهر الحربية ، فأجابهم بقوله : « إننا لا ندخل الحرم بالصلاح » .

ولما حان وقت دخول مكة ، خرج منها أهلوها ، كراهة منهم أن يروا المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل النبي ﷺ وصحبه متوشحين بسيوفهم من ناحية يقال لها ثنية كداء ، أمامه عبد الله بن رواحة وهو يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ؛ وطاف رسول الله بالبيت ، واستلم الحجر الأسود بيمينه (الميمن هي العصا المنعطفة الرأس) وأمر أصحابه أن يطوفوا ثلاثة أشواط مسرعين ، إظهارا للقوة ، لأنه بلغه أن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكهم حمى يثرب ، أى المدينة ، فقال ﷺ : رحم الله امرأأ أراهم من نفسه قوة . واضطجع بردائه (أى أدخل رداءه تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر) وكشف عضده اليمنى ، شأن أهل الفتوة ، وفعل مثله المسلمون .

هذه هى عمرة القضاء ، وإنما سميت بهذا الاسم لأنها لم تعمل فى وقتها حين أرادوها فى العام الماضى ، فصارت قضاء .

• • •

وفى صفر من هذه السنة ، وهى الثامنة من الهجرة ، أرسل النبي ﷺ غالب ابن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح ، وهم يسكنون بالكديد ، وهو بين عسفان وقُذَيْد من بلاد العرب بقرب المدينة ، فسارت هذه الفصيلة من الجند حتى إذا كانت بقديد التقت بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء ، وكان من أشد خصوم الإسلام والمسلمين ، فأسروه . فقال لهم : إلى ما جئت إلا لأدخل فى الإسلام . فقالوا له : إن جئت لهذا القصد فلا يضرك وثاق ليلة . ثم صاروا حتى وصلوا إلى محلة بنى الملوح فاستاقوا الغنم والشاء ، وانطلق صريخهم مسرعا وأخبر القوم بما حدث . فأقبل عليهم من رجالهم عدد لا قبل للمسلمين بدفعه ، وكادوا يلحقون بهم ويقاتلونهم ، لولا أن اتفق حدوث ميل شديد حال بينهم وبين أعدائهم ، واستمر

المسلمون يستاقون غنيمتهم ، وأصحابها ينظرون إليهم ، ولا يستطيعون أن يصلوا إليهم ليستردوها منهم .

ولما عاد غالب بن عبد الله الليثي إلى المدينة ومعه الغنيمة ، أرسله رسول الله ليقتص من بني مرة بفدك ، وهم الذين اجتاحوا سرية بشير بن سعد التي أَلَمْنَا بذكرها هنا . فانطلق على رأس مائتي رجل حتى إذا كان قريبا من القوم الذين صمد لهم (أى قصد إليهم) ، جمع جنوده وخطبهم قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد فإنني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمرا ، فإنه لا رأى لمن لا يطاع » ، ثم آخى بين كل اثنين من جنوده ، وأمر كل متآخيين أن لا يفارق زميله ، وحذرهم أن يرجع الواحد منهما فإذا سئل أين صاحبه قال لا أدري ، ثم أمرهم إذا كبر أن يكبروا بعده .

هذا أسلوب جديد في الحرب لم يؤثر عن غير غالب بن عبد الله ، وهو إجراء لا شك في أنه رآه أفعل في تماسك أصحابه في تلك الحالة التي وجد فيها ، وكثيرا ما يروى عن القواد المحنكين ابتكارات تملئها الحاجة الوقتية ، وتعود بأجزل الفوائد على الآخذين بها ، وخاصة إذا كانوا في حالات يكون المقاتلون فيها بحاجة إلى وسائل جديدة .

ثم أخذ غالب يفرق جنوده ويعين لهم مواقف بحيث يصيرون محيطين بعدوهم ، حتى لا يفلت منهم أحد .

لما تمت هذه الاستراتيجية أى التعبئة ، رفع غالب صوته بالتكبير ، وكبر بعده جنوده وجردوا سيوفهم وحملوا جميعا على أعدائهم في وقت واحد فأتوا عليهم ، لم يفلت منهم أحد ، واستاقوا ما شيتهم كلها .

* * *

وفي ربيع الأول أرسل النبي ﷺ كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح من أرض الشام في خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا كثيرا ، فدعوههم إلى الإسلام فأبوا ، وهجموا على المسلمين وهم في قلة لا تغنى عن نفسها شيئا ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعا شديدا حتى بادوا على بكرة أبيهم ، إلا رئيسهم كعب بن عمير ،

تمكن من العودة سليما وأخبر رسول الله بما حدث ، فهم أن يبعث إليهم بمن يقتص منهم ، فترامى إليه أن القوم تحولوا عن محلتهم ، فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة :

لما أرسل النبي ﷺ في السنة السادسة من الهجرة رسلا من عنده إلى الملوك بكتب يدعوهم فيها إلى الإسلام ، كان منهم الحارث بن عمير الأزدي أرسله إلى أمير بُصْرَى ، فلما بلغ مؤتة ، وهي قرية تابعة للبلقاء بالشام ، تعرض له شُرْخِيْل ابن عمرو الغساني ، فسأله أين يريد ؟ فأجابه الحارث : الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم . فأمر به فضربت عنقه . فلما بلغ رسول الله ما حدث ، أسف من ذلك أسفا شديدا ، فلما كانت السنة الثامنة من الهجرة جهز جيشا للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير هذا . وسلم قيادته إلى زيد بن حارثة ، وقال لهم إن أصيب زيد فاجعلوا بدله جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب هو أيضا ، فأمرؤا عليكم مكانه عبد الله بن رواحة . وكان عدد هذا الجيش ثلاثة آلاف رجل . فلما ساروا شيعهم النبي ﷺ وأوصاهم ، وكان مما قاله لهم : « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجلا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ، ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرا ، ولا تهدموا بناء » .

بعد أن تلقى أصحابه هذه التوصيات لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مؤتة ، وهي قرية قريبة من الكرك من مشارف الشام ، وهي الجهة التي قتل فيها الحارث ابن عمير مندوب رسول الله ﷺ ، وكان الرومان قد بلغهم خبر قدومهم فأعدوا لهم جيشا لجبا مؤلفا من مقاتلتهم المختارين ، تؤيدهم جماعة من العرب الذين دخلوا في البصرانية مجاورتهم لأهلها . فلما رأى المسلمون كثرة عدد أعدائهم أخذوا يتفاوضون فيما يفعلون ، أيقدمون على الحرب ، أم يترثون ريثما يصلهم مدد من النبي ﷺ ؟ فاستقر رأيهم على مناجزة عدوهم ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، حتى قتل قائدهم زيد بن حارثة ، فقام مقامه بناء على إشارة رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ، واستمر جيش المسلمين يقاتل حتى قتل قائده المذكور ، فخلفه على القيادة عبد الله ابن رواحة ، فتقدم الصفوف ولم يزل يقاتل حتى قتل . واشتد الكرب على

المسلمين ، وحمى وطيس الكفاح ، وظهر التضعضع في صفوفهم ، وهمت طائفة بالتقهقر ، فقال لهم عقبة بن عامر : « يا قوم يقتل الإنسان مقبلا خيرا من أن يقتل مدبرا » فأقبلوا مستبسلين ، ورأوا أن يؤمروا عليهم خالد بن الوليد وهو أشهر قواد العرب جاهلية وإسلاما ، وكان لم يمض على إسلامه إلا سنة وبضعة أشهر ، وكان هذا الجيش في حاجة إلى قائد خبر مآزم الحرب ، وتورط في غمراتها ، لا لإحراز النصر على أعدائه في تلك الملحمة التي لا تناسب فيها بين الخصمين من الناحية العددية ، ولكن لتخليص جيشه من التهلكة التي يتعرض لها ، وليس يخفى أن حماية الجيوش من المهالك التي تتعرض لها ، لا تقل استدعاء للحكمة الحربية ، والمهارة الفنية ، من إبلاغها إلى ذروة النصر ، بل ربما كانت الأولى أكثر استحقاقا لإطراء القائد الذي تتم على يده تلك الحماية ، من خصمه الذي انتصر عليه ، إذا كانت النسبة العددية بين الجيشين كبيرة ، وكان الجيش القليل عدده بعيدا عن مراكز تموينه ومصادر مدده . وأين حدود الشام من المدينة ، وماذا يغني ثلاثة آلاف عن أنفسهم حيال أمة رمتهم بمائة وخمسين ألفا من جنودها المخنكين ، فضلا عن ألوف أخرى من العرب المتحصرة ؟ وماذا تكون الحالة المعنوية لجيش فقد ثلاثة قواده الواحد تلو الآخر ، ووجد نفسه بغير قائد يدبره ؟ لا جرم أن التصدى لتخليص هذا الجيش من التهلكة يعتبر من الأعمال التي تخلد لصاحبها في تاريخ الحروب ذكرا .

تولى خالد بن الوليد قيادة هذا الجيش ، وجعل همه أن يدبر أمر قهقرته بأقل خسارة ممكنة ، أى بانتظام ، كما يقال في العرف الحربي ، فقاتل يوم توليه قتالا عنيفا ، وفي غده جعل ساقته مقدمة وميمته ميسرة ، إيهاما للرومان بأنه قد تلقى مددا ، وفي الوقت نفسه بنى أمره على التقهقر بانتظام ، واللجأ إلى ما يسمى في العرف الحربي الراهن بحرب المؤخرة ، وما زال يقاتل وهو يتقهقر حتى انحاز إلى مؤتة ، وهي في موقع يمكنه من الثبات قليلا ، وظل فيه سبعة أيام ، فلم ير الرومان أن يتبعوه إلى أبعد من هذا الموقع خشية أن يطول خط تموينهم ، فاكفوا بدفعه إلى ذلك الحد ، وتركوه وشأنه ، وعادوا إلى بلادهم .

ولما عاد الجيش قابل الناس جنوده لائمين لهم ومرددين قولهم : يا مُرَّار . فقال النبي ﷺ : بل هم الكُرَّار وأفهمهم ما فعله خالد من مكاييد الحرب ، وأثنى عليه

وأشاد بمهارته ، وحسن قيادته .

وفي شهر جمادى الآخرة بلغ النبى ﷺ أن رجالا من بنى قضاة يتجمعون في ديارهم وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة ، فأرسل إليهم كتيبة من الجند مؤلفة من ثلاثمائة رجل من الأنصار وأمر عليهم عمرو بن العاص ، ثم أمده بمائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا غمراً قبل أن يصلوا إلى القوم .

لما وصلت هذه السرية إلى محلة القوم حملوا عليهم حملة صادقة ، فلم يمض غير قليل حتى ولى أعداؤهم منهزمين ، فاستاقوا ماشيتهم .

وفي رجب من هذه السنة كلف أبا عبيدة بن الجراح بغزو بنى جهينة التي تنزل ساحل البحر ، وجعل معه ثلاثمائة فارس . فلما وصلت هذه الكتيبة إلى محلة القوم وجدتهم غالبين عنها ، فمكثوا ينتظرون عودتهم نحو نصف شهر حتى نفذ زادهم ، فاضطروا إلى التغذى بورق السَّمُر وهو ضرب من العِصاة ، والعصاة كل شجر يكبر وله شوك ، فاشتري لهم قيس بن سعد بن عبادة ثلاث جُزُر^(١) أى إبل حصل عليها بدين على أبيه ، وأطعم رفاقه ، ثم أراد أن يزيد ، فناه أبو عبيدة خشية أن لا يقى له أبوه بما استدان . ولم ير في زيادة المكث فائدة ، فعاد إلى المدينة .

لعل بعض الناظرين في السيرة المحمدية يلاحظون أنه كما فيها شئون لا يمكن تعليلها إلا بافتراض وجود تأييد إلهي عظيم لأحداث حصولها مناقضة للسنن الاجتماعية والنفسية المعروفة ، فيها شئون أخرى يبدو عليها طاقة القدرة الإنسانية ، ويجرى عليها ما يجرى على سائر الشئون البشرية من النجاح أحيانا ، ومن القصور والضعف والخيبة أحيانا أخرى ، كما حدث لسرية بشير بن سعد الأنصارى التي قتل فيها أكثر جنودها ، وسرية كعب بن عمير الغفارى التي قتل جميع آحادها إلا قائدهم ، وغزوة مؤتة

(١) الجُزور الجممل يطلق على الذكر والأنثى جمعه جُزُر .

التي قتل فيها ثلاثة قواد وكان قصارى رابعهم أن عاد بمن بقى من الجيش دون أن ينجى أية فائدة ، وسرية أوى عبدة عامر بن الجراح التي جاع فيها الجنود واضطروا لأكل ورق الشجر حتى تفرحت أشداقهم ، ولم يجدوا القوم الذين ذهبوا لقتالهم .

يلاحظ بعض الناظرين كل هذا ويقولون : أليس لو كان محمد نبيا لكان أوحى إليه ما سيصيب أصحابه من هذه المحن فلا يعرضهم لها ، حتى لا تحدث اضطرابا في جماعته ، أو شكاً في نبوته ؟ ونحن لدحض هذه الشبهة نقول :

أراد الله سبحانه أن يجعل للعالم كافة مثلاً أعلى للدين ، فأوحى الإسلام ، وأراد أن يقيم له أمة تدين به وتتدب لنشره ، فقضى أن تكون تلك الأمة ذات كيان عالمي لا تقوم على الجنسية ، والضرورات المادية ، على مثال سائر الأمم ، ولكن تتألف حول المبادئ الخلقية ، والأصول الحكيمة ، فكانت هي الأمة الإسلامية . فأما الدين فقد تولى الله وحيه جملة وتفصيلاً ، وأما الأمة فلا يمكن أن تجعل كل حركاتها وسكناتها صادرة عن الوحي ، لأن الوحي متى انقطع بوفاة النبي المرسل ، تجد الأمة نفسها قاصرة عن الاستقلال بنفسها ، لأنها لم تعتمد على قواها الذاتية قط ، ولم تكتسب بمجادلة الحوادث ، والوقوع في المآزم ، ما يرى في نفسها عناصر الرشد ، ويكمل لها ميزات النضج ، لذلك ألقى الله حبلها على غاربها لفتح نفسها ، بمحض جهودها الذاتية ، وقواها المعنوية ، مكانا تحت الشمس .

ومن أصول علم التربية أن الطفل لكي يستكمل صفات الرجولة ، ويشب صالحاً لمكافحة حوادث الحياة وجوانحها ، يجب أن لا يحاط ، بعد أن يشب ويترعرع ، بكثير من العناية ، خشية أن يصاب ببحر في يده ، أو بشجة في رأسه ، أو بكدمة في جسمه ، ولكن يجب أن يعرض لذلك في حد محدود ليتعود تحمل الآلام ، ومكابدة العواقب .

فكل ما تصادفه في الناحية الاجتماعية من السيرة المحمدية أحيانا من الفضل في المحاولات ، والخطأ في التقدير ، والتعرض للهزائم ، يجب رده إلى الأصل الذي ذكرناه ، وهو لا يصح أن يكون مثار شبهة على النبوة ، ولا مصدر شك في الرسالة ؛ ولو كان يصح لتأثر به قبل غيرهم أولئك الذين ابتلوا به ، وكيف يتأثرون به ،

وقد أخبروا به قبل أن يصيبهم ، قال الله تعالى : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (أى لا يمتحنون) ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ ^(٢) .

فالذين دخلوا في الإسلام في أول عهده ، قبلوه على أنه دين تمحيص وابتلاء ، لإبلاغ إنسانيتهم إلى أوجها الأعلى من الكمال ، بتعريضهم لعوامل التطهير والاستصفاء ، وقد وفوا بعهدهم ، فاستحقوا أن يكونوا في الرعي الأول من خدام الإنسانية ، وكوفوا بأن مكن الله لهم ما لم يمكنه لغيرهم في الأرض ^(*) .

* * *

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان (٢ ، ٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٥٥ - ١٥٧) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الرابع ، شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٢ هـ .

فتح مكة

قصد إليها رسول الله على رأس عشرة آلاف مقاتل
وكانت مقاومة المشركين عنها أشبه بالتسليم

كان يخيل لقارئ السيرة المحمدية أنه سيقراً في هذا الفصل أخبار صراع بين الإسلام والوثنية يشيب لها الولدان ، ناهيك أنها بيعة قريش التي تولت زعامة المقاومة للإسلام من يوم ظهوره ، وأن في احتلال المسلمين لها ضياعاً لجميع امتيازاتها التاريخية في سدانة البيت ، وما يتصل بها من المهام الدينية ، فيدهش القارئ حين يرى أن فتح مكة لم يكلف المسلمين أكثر من قتيلين ، ولم يذل الجاهليون في سبيل الدفاع عنها أكثر من دماء ثمانية وعشرين رجلاً ، وليسوا من قريش ، بل من بني الحارث وبني بكر وبني هذيل كانت امتنصرت قريش بهم !

هذه ظاهرة لا يدهش منها إلا الذين ليس لهم نصيب من العلم بتحليل الحوادث الاجتماعية ، ومعرفة العوامل التي توجد المناعة فيها ، والتي تهبطها للاختلال والخذلان . ونحن نسرد للقارئ جملة هذه العوامل ، لنتبينوا أن ما حدث كان منتظراً ، وأن أكبر قوة في الأرض ما كانت لتحمي قريشاً من المصير الذي آلت إليه :

(أولها) ضعف العاطفة الدينية عند العرب ، فإنهم ما كانوا في عهد من عهودهم على شيء كبير منها . ناهيك أنه لم يكن لهم كتاب يقدسونه كما لجميع أهل الملل ، ولم يكن لهم حفظة للدين ، فلذلك كانت وثنياتهم مزيجاً غير متجانس من أوهام ساذجة ، وكان لكل قبيلة أصنام خاصة لا يمت بعضها إلى بعض بصلة ، كأصنام المصريين واليونانيين والرومانيين القدماء ، والشئ الوحيد الذي كان يجمع بينهم هو حج البيت ، وكان لا يهمهم أمره إلى حد الدفاع عنه ، بدليل أن أبرهة عندما اعتزم هدم الكعبة ، اخترق بحجوده بلاد العرب حتى وصل إلى مكة ، وما كان من أهلها إلا أن تركوها شاغرة واعتصموا بالجبال ، هرباً من بطشه ، والذي يترك البيت لأجنبي يهدمه ، يهون عليه أن يتركه لعرق يحفظه ويعظمه .

(ثانياً) تفكك الرابطة الاجتماعية . وأنتى لهم ذلك وهم قبائل متفرقة ،

وفي حالة تنازع وتناحر دائمين ؛ فالقبيلة إن اجتمعت كلمتها للدفاع ، فلا يكون ذلك إلا ذيادة عن الأرض التي تمدها بالقوت ، ولم يكن معول قبائل العرب على الزراعة لقحولة أرضهم ، فإذا استطاعوا إجلاء ماشيتهم التي عليها مدار معيشتهم ، هانت عليهم محلتهم ، وانتقلوا إلى محلة أخرى من بلادهم .

(ثالثا) إثنان النبي ﷺ في القبائل اليهودية ، كبنى قريظة والنضير وأهل خيبر ، وإجلالها عن أرضها ، وإدخال من بقى منها في طاعته ، وقد كان رجالانها يرحلون إلى مكة ويحرضون قريشا على قتال النبي ﷺ ، ويطوفون على أحياء القبائل فيجمعون كلمتها على حرب المسلمين ، فلما بطل كل ذلك بطلت العوامل المحركة لقريش على المقاومة ، فلانت شكيبتها صاغرة .

(رابعا) إسلام كبار قادة الحرب فيها كخالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وأبي سفيان بن حرب ، وكان دخولهم في الإسلام طوعية من أشد المشبطات لها عن المقاومة .

وقد تبين أن صلح الحديبية ، وهو الصلح الذي عقد بين قريش ورسول الله ﷺ ، عقب منعه عن العمرة ، رغما عما ثار حوله من سخط الكثيرين عليه ، كان له أثر كبير في تفهم كثير من عقلاء القرشيين للإسلام ، ومبادلتهم الرأي لأمثالهم الذين سبقوهم إليه ، فدخل منهم فيه عدد يذكر . وهذا الأمر كان له أثر كبير في كسر شرّة المحافظين على الوثنية .

(خامسها) ضخامة القوة التي صمد بها النبي ﷺ إلى قريش ^(١) . وهي عشرة آلاف مقاتل ، ولا تستطيع هي تجريد أكثر من خمس هذه القوة إذا استطاعت أن تستثير معها أحلافها من القبائل المجاورة .

والقول بأن قريشا كان يمكنها إهاجة قبائل من غير أحلافها ، مثل هوازن وغيرها ، بعيد عن التحقيق ، لأن هذه القبائل ما كانت لتآزر لأغراض دينية ،

(١) صمد إليه معناه قصد إليه . وبعض الجرائد تستعمله بمعنى قاومه وهو خطأ .

ولو كانت تفعل ذلك لأمكن قريشا ، بمؤازرة خطباء بنى إسرائيل ، أن تسوق على المسلمين عشرات كثيرة من الأنكوف للقضاء على جماعتهم فى المدينة ، وهذا ما لم يحصل حتى بعد ما نجلى لتلك القبائل أن أمر المسلمين آخذ فى التضخم ، بما يدوخونه من القبائل التى حولهم .

نعم إن بنى هوازن جردت على المسلمين بعد فتح مكة ثلاثين ألفا من رجالها وهى من أكبر قبائل العرب ، ولكن لم يكن ذلك لإنفاذ الأصنام ، أو البيت الحرام من أيدي المسلمين ، ولكن لحشيتهم أن النبى ﷺ بعد ما استب له الأمر فى مكة ، وامتد سلطانه إليها ، يعود فيحاول غزوهم فى ديارهم ، فأرادوا بما فعلوا أن يدفعوا هذا الخطر عنهم .

هذه هى العوامل التى قضت على قريش بأن تقبل إعطاء الدبئية ، وأن تمتسلم للمسلمين على الوجه الشائن ، وهو مصداق لقوله تعالى فى أول عهد الدعوة الإسلامية : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ، سَيُؤْخَذُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبْرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ ^(١) .

تاريخ هذا الفتح :

يعرف قراء هذه السيرة أنه لما اتفق النبى ﷺ وقريشا على أن لا يعتمر فى عامه الذى شخص فيه إلى مكة ، وأن يعود فيما يليه ، وسُمى هذا الاتفاق بصلح الحديبية ، وشُرط فيه أن لا يقاتل أحد الفريقين الآخر مدة أربع سنين ، وكان ذلك فى السنة السادسة من الهجرة ، حدث فى السنة الثامنة ما أوجب نقض هذه المعاهدة ، وإعلان الحرب على قريش .

ذلك أن بنى خزاعة التى كانت نازلة بجوار مكة ، كانت قد دخلت فى عهد النبى ﷺ ، ودخلت جارتها بنو بكر فى عهد قريش ، وكان بين هاتين القبيلتين ثارات بقيت متأججة فى صدريهما إلى ما بعد ظهور الإسلام .

(١) سورة القمر ، الآيات (٤٤ - ٤٦) .

فلما وقع صلح الحديبية بين المسلمين وقريش ، وقف رجل من بنى بكر يهجو رسول الله على مسمع من رجل من بنى خزاعة ، فنهض هذا وضربه ، فهبت بنو بكر للثأر من بنى خزاعة ، وأجمعوا أمرهم على حربهم ، وأعانهم بنو قريش سراً ، وأمدوهم بالرجال والعتاد خفية ، وقتلوا من بنى خزاعة أكثر من عشرين رجلاً . فما كان من أمر هذه القبيلة الأخيرة إلا أن أرسلت وفداً إلى النبي ﷺ تخبره بما حدث من بكر وقريش .

وأما قريش فإنها لما تحققت أن ما حدث يعتبر نقضاً لمعاهدة الصلح ، أرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليجدد العقد ويزيد في مدته . فقصد إلى مسجد النبي ﷺ وأدى إليه ما ندمته قريش له ، وهو لا يعلم أن وفد خزاعة سبقه وأخبر الرسول بما كان . فسأل ﷺ أبا سفيان : هل حدث شيء يقتضى حضوره ؟ فأجابته نفياً . فقال له رسول الله : إذن فنحن على مدتنا وصلحتنا ، ولم يزد . فأدرك أبو سفيان أنه لم ينجح ، فقصد إلى رجالات المسلمين من قريش ، ورجاهم أن يتوسلوا له إلى رسول الله في قضاء ما ندم له ، فلم يلبه منهم أحد ، فرجع إلى مكة .

أما رسول الله فإنه أمر بتعبئة الجيش ، واستنفر الأعراب النازلين حول المدينة ، ولم يخبر أحداً بما عزم عليه . ولكن أحد أصحابه واسمه حاطب بن أبى بلتعة كان له أقارب بمكة ، فأراد أن يتخذ عند قريش يداً ليدفع عنهم أذاهم ، فكتب إلى قريش يخبرهم بحركات النبي ﷺ ، وأرسل كتابه مع جارية ، فغثر عليها المسلمون في روضة خاخ ، ووجدوا معها كتاباً فأخذوه منها وأحضروه إلى النبي . ولما قرئ له وعرف ما فيه ، استدعى كاتبه ، وكان ممن شهد بدر ، وهي أشهر المواقف الإسلامية . فسأله رسول الله عن السبب الذى دعاه لما فعل ؟ فأجابته : بأنه لم يفعل ذلك كفراً ولا غدراً ، ولكن ليتخذ عند قريش صنعة يحترمون بسببها أهله . فقال رسول الله : أما إنه قد صدقكم ، وعفا عنه .

ثم سار النبي ﷺ على رأس عشرة آلاف مقاتل في منتصف رمضان ، فلما وصل إلى الأبياء لقيه رجلاً كانا من أشد أعدائه ، هما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وصهره عبد الله بن أبى أمية شقيق زوجته أم سلمة ، وكانا يريدان الإسلام ، ففرح النبي بهما وقبلهما . ثم ما لبث أن قابل عمه العباس وأهله قاصدين المدينة ، فدعاه ليصحبه إلى مكة ، وأمر بأهله فرحلوا إلى المدينة .

ولما بلغ مر الظهران ، وكان بلغ قريشا أن النبي ﷺ زاحف في خميس عرمم لا تُدري وجهته ، أرسلت أبا سفيان بن حرب وبُذَيْل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتمسكون لهم الخبر ، فلما بلغوا مر الظهران عثر بهم جنود من المسلمين فاقتادوهم إلى النبي ﷺ ، فلما رأى أبو سفيان كثرة عدد المسلمين ، وعظيم تأهبهم ، لان قلبه للإسلام فأسلم .

ولما شارف المسلمون مكة ، جعل النبي ﷺ جيشه قسمين ، ولى أحدهما خالد بن الوليد وأمره أن يدخلها من كُدَى وهو جبل بأسفل مكة على طريق اليمن ، ودخل هو ﷺ من كَدَاء وهو جبل بأعلى مكة .

فأما خالد فقد قابله رجال من أحلاف قريش وأرادوا منعه ، فحدثت بين الفريقين معركة قتل فيها من المسلمين رجالان ، ومن المشركين ثمانية وعشرون ، وداخلهم الرعب فانهزموا .

وأما النبي ﷺ فلم يجد معارضا . وكان راكبا راحلته منحنيا على رحلها تواضعا لله ، حتى تكاد جبهته تمسه ، وجاعلا أسامة بن زيد رديفا له ، زيادة في التواضع ، وكان ذلك في صبيحة يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان ، وما زال سائرا حتى وصل إلى الحَجُّون ، وقد نصبت له هنالك قبة كان فيها أم سلمة وميمونة زوجته ، فاستراح قليلا ، ثم سار وإلى جانبه أبو بكر ، وهو يقرأ سورة الفتح ، حتى وصل إلى البيت الحرام ، فطاف به سيعا واستلم الحجر الأسود بحمته ، وكان داخل البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعن بها يعود في يده وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » ، ثم أمر بها فأخرجت من البيت ، وفيها صورة لإسماعيل وإبراهيم وفي أيديهما الأرزلام ، وهى سهام صغيرة كانوا يلقونها ويستقسمون بها ، أى يعرفون ما قسم لهم مما لم يقسم بوقوعها على وجه منها أو على آخر ، فقال عليه الصلاة والسلام : قاتلهم الله لقد علموا أنهما ما استقسما بها قط !

ثم دخل رسول الله الكعبة وكبر في نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه ثم شرب من زمزم ، وجلس في المسجد والناس حوله ، والعيون شاخصة إليه

ينتظرون ما هو فاعل بمشركى قريش ، وقد طأنا آذوه واضطهدوه ، واضطروه هو وأصحابه للمهاجرة ، وقتلوه أعنف قتال وأشنع ، وخانوا عهده ، وحاربوا حلفاءه وأثخنوا فيهم .

في هذا الموطن الذى فيه حُميًا الفوز تملأ الرعوس ، وغرائز الجيلة البشرية تشرب إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه من الأنفة ، وأبهة الغلب تغعم النفوس شعورا بالعزة ، تظهر المبادئ التى يقوم عليها المنتصرون فى أروع مظاهرها ، وتنم أفعالهم على حقيقة ما انضوت عليه جوانحهم من السمو الصحيح ، أو الرياء الدنيء لنشر الدعوة .

فماذا تظن أن النبى ﷺ فعل بخصومه وقد وقعوا تحت يده ؟ إنه عفا عنهم قائلا لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم نهض ﷺ وخطب الناس خطبة بين فيها كثيرا من الأحكام الشرعية . ثم التفت إليهم وقرر لهم الأصل الأصل الذى أقام عليه الإسلام صرح أمة عالمية ، لا تمت إلى الروابط الجنسية واللغوية بصلة ، أمة دينها الحق ، ودستورها العلم والعقل ، وربطتها المساواة والعدل ، وسيرتها المدنية الفاضلة والنبل ، وهو قوله ﷺ : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وماكاد يتم خطبته حتى أقبل سادات المشركين يبائعونه على الإسلام ، فكان ممن بايعه فى ذلك اليوم معاوية بن أبى سفيان ، وأبو قحافة والد أبى بكر . وجاءه رجل يرتعد خوفا ، فقال له رسول الله : « هُوَ عَلَىكَ فَإِنِ لَسْتَ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَأَنَّكَ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » .

هذه كلمة لو تأملها طالب الدليل القاطع على نبوته ، لكان له منها أقوى حجة ، تفوق في سطوع دلالتها أعظم الخوارق للطبيعة ؛ لأن رجلاً يبلغ إلى هذه الدرجة من السلطان على الأجساد والقلوب ، مجرد نفسه مختاراً من أرفع لقب لا تتناول إليه أرفع الرعوس ، لعلوه عن تناول أبعد المطامع ، وقد تيسر له سبيله إلى خد أن كلمة منه كانت تكفى لحصوله عليه ، إن رجلاً يبلغ إلى هذا الحد من التجرد عن الدنيا ، هو رجل لا يوفيه حقه أى وصف غير وصفه بالنبوة .

وقد أهدر النبي ﷺ دماء رجال امتازوا بفضاعة عداوتهم له وللمسلمين ، فهربوا من وجهه ، فقتل بعضهم وأسلم بعضهم ، منهم عبد الله بن أبى سرح لجأ إلى عثمان بن عفان وطلب إليه أن يستأمن له رسول الله ﷺ ، فأعرض عنه مراراً ثم بايعه . ومنه عكرمة بن أبى جهل فإنه فر ، وكانت امرأته قد أسلمت قبل الفتح ، فأخذت له أماناً من رسول الله ، ولحقت به واستقدمته فأسلم ، وكانت له مواقف في الإسلام محمودة .

وممنهم هُبَّار بن الأسود ، وقد استتر حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالجِعرانة ، وهى موضع بين مكة والطائف ، جاءه مسلماً وقال له : يا رسول الله هربت منك ، وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله أهل شرك ، فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة ، فاصفح الصفح الجميل . فقال له النبي : قد عفوت عنك .

ومنه الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية ، وقد أجارتها أم هانئ بنت أبى طالب ، فأجاز عليه السلام جوارها .

وممنهم صفوان بن أمية فإنه ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فذهب ليلقى بنفسه في البحر ، فجاء ابن عمه عمير بن وهب وقال : يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد هرب ليلقى بنفسه في البحر ، فأئتمته فإنك قد أمنت الأحمر والأسود . فقال له ﷺ : أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال عمير : فأعطني يا رسول الله علامة . فأعطاه النبي عمامته . فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان ، قال له : فذاك أبى وأمى قد جئتكَ من عند أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير

الناس ، وهو ابن عمك ، وعزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال صفوان : إني أخافه على نفسي . قال عمر : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان . فرجع إلى رسول الله وقال له : إن هذا يزعم أنك أمتنتي . قال : صدق . قال صفوان : فأمهلتني بالخيار شهرين . قال له النبي : بل أربعة أشهر . ثم أسلم وحسن إسلامه .

ومنهم هند بنت عتبة فاخضعت ، ثم جاءت وأسلمت ، فقبل النبي ﷺ إسلامها .

وأما كعب بن زهير بن أبي سلمى ، فلما ضاقت عليه المنادح ، ولم يجد بدا من التسليم ، جاء المدينة وأسلم ، وأنشد رسول الله قصيدة يمدحه بها ، أولها :
بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم إثرها ، لم يُفد ، مغلول
ثم مضى فيها يصف ما لاقاه من الشدائد في اختفائه :

وقال كل صديق كنت آمله	لا ألهيتك إني عنك مشغول
فقلت خلو سبيلي لا أبا لكم	فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته	يوما على آلة حدهاء محمول
أنيت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ	قرآن فيها مواعظ وتفصيل

فلما انتهى إلى قوله :

إن الرسول ليف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
خلع رسول الله برده وأعطاه إياها إعجابا بشعره .

ومنهم وحشى قاتل حمزة عم النبي ، وقد جاء إلى رسول الله مسلما ، فقبل إسلامه .

ومنهم ابنا أبي لهب عتبة ومعتب ، فإنهما قدما نفسيهما وأسلما ، فقبل النبي ﷺ إسلامهما .

بيعة النساء :

لما تمت بيعة الرجال جاءه النساء فبايعنه على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسول في معروف .

هدم كبار الأصنام :

في اليوم الخامس بعد الفتح أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين رجلا ، وأمره بهدم هيكل أكبر صنم كان لقريش وهو العزى ، وكان هيكلها بيطن نخلة قريبا من مكة .

وأرسل عمرو بن العاص لهدم الصنم الكبير لبنى هذيل ، وكان هيكله على بعد ثلاثة أميال من مكة ، فذهب عمرو إليه وهدمه .

وبعث سعد بن زيد الأشل في عشرين فارسا لهدم الصنم مائة وكانت لبنى كلب وخزاعة ، وكان هيكلها بالمشال ، وهو جبل على ساحل البحر الأحمر ، فذهبوا إليها وهدموها .

هذه حوادث كبر لم يَرَوْ مثلها لمصلح في الأرض ، ولا لرسول قبل محمد ﷺ فمن شاء دليلا على نبوته فوق هذا ، فلا أدري أى دليل يقتنع به بعده ! يحسن بنا أن نكرر هنا ما سبق لنا أن نوهنا به من قول الفيلسوف الانجليزي الكبير كارلايل فقد قال في كتابه (الأبطال وديانة الأبطال) ما مؤداه :

« ماذا يطلب من رجل يدعى أنه بئاء من دليل على دعواه ، أكبر من أن يبنى بيتا يأوى إليه الناس . وقد جاء محمد فادعى أنه نبي ونشر دينا اتبعه مائتا مليون من النفوس ووجدوا فيه سعادتهم ، وبقي هذا الدين قائما أكثر من ألف ومفتي سنة ؛ فأى دليل يراد منه أن يقيمه على نبوته بعد هذا ؟ » (*) .

★ ★ ★

المعركة الفاصلة بين الوثنية والإسلام

في بوادي العرب

غزوة حنين

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١).

غزوة حنين كانت بين بنى هَوازِن وبنى ثَقِيف مجتمعين ، وبين المسلمين ؛ وحنين اسم موضع في طريق الطائف ؛ وقيل إن حنينا اسم لما بين مكة والطائف ، وقد سميت هذه المعركة أيضا بوقعة أُوطَاس ، وهو الموضع الذي وقعت به . وهوازن قبيلة كبيرة ذات بطون كثيرة كانت نازلة بين الطائف ومكة .

سبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ لما فتح مكة ، ودانت له قريش ، خشيت هوازن وثقيف أن يغروهما ويدخلهما في طاعته ، فاجتمع قادة القبيلتين وتشاوروا في الأمر ، واتفقوا على قتاله ، وقال قائل منهم ، « والله مالاقي محمدا قوم يحسنون القتال ، فأجمعوا أمرهم ، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم » . وكان قائد هوازن مالك بن عوف ، وقائد ثقيف كنانة بن عبد ياليل ، وانضمت إليهما جموع غفيرة من قبائل شتى حتى بلغ مجموعهم ثلاثين ألف مقاتل ، أجمعوا على إعطاء القيادة لمالك بن عوف ، واشتروطوا عليه أن يستشير دُرَيْدَ بن الصَّمَّة ، وهو أعلامهم رأيا ، وأعرفهم بالحرب ، ولكنه كان قد أسن حتى بلغ العشرين بعد المائة ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت سن مالك بن عوف ثلاثين سنة . فسمع دريد رغاء الإبل ، وخوار البقر ، وبكاء الصغار ، فقال : مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، وخوار

(١) سورة التوبة ، الآيات (٢٥ - ٢٧) .

البقر ؟ فأجابوه : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم . قال : أين هو ؟ فحضر بين يديه فقال له : يا مالك إنك تقاتل رجلاً قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى يهود . فقال مالك : لا نخالفك في أمر تراه . فقال دريد : مالى أسمع هذه الضوضاء ؟ قال مالك : سقت مع الناس أبنائهم ونساءهم وأموالهم ليكون خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم . فقال دريد : هل يرد المنهزم شيء ؟ فإن كانت لك فذاك ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

فأبى مالك أن يطيعه ، وغضب دريد واعتزل الحرب .

ولما بلغ النبي ﷺ خروج هذه الجموع إليه ، نبذ إليهم على سواء ، وكان ذلك يوم السبت السادس من شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة ، في جيش عدته اثنا عشر ألفاً ، عشرة آلاف منهم كانوا جاءوا معه لفتح مكة ، وألفان من الذين أسلموا من قريش بعد الفتح ، وخرج معهم نساء كثيرات طماعية في المغنم . ومما يجب لفت النظر إليه خروج ثمانين من المشركين لشدة أذى المسلمين ، منهم صفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو ، وكان ذلك منهم كراهية أن يتغلب الأعراب على قريش ^(١) ، وفي الأعراب جفوة وغشمريّة ليست للعرب ^(٢) .

عباً رسول الله جنوده فأعطى قيادة المهاجرين لعلى بن أبى طالب ، وقيادة بنى الأوس لأسيد بن حضير ، وقيادة الخزرج للحباب بن المنذر ، والأوس والخزرج أهل المدينة ويطلق عليهم الأنصار .

ولبس عليه الصلاة والسلام درعين وبيضة ومِغْفَرًا ^(٣) .

لما سار الجيش ورأى المسلمون كثرتهم ، تداخلهم شيء من الزهو ، فقال رجال منهم : لن نهزم اليوم من قلة .

لما تمت تعبئة الجيش انحدر النبي بجنوده في الوادى عند غيش الصبح ، وكان

(١) تطلق كلمة (عرب) على سكان الأمصار ، وكلمة (الأعراب) على سكان البوادي .

(٢) الجفوة الغلظ ، والغشمريّة الظلم والكبر .

(٣) المغفر : ما يقى الرأس والعنق من الحديد والزرّد .

رجال من هوازن قد كمنوا له في بعض شعاب ذلك الوادى ومضايقه ، فلما حمل المسلمون على جيش العدو لم يلبثوا أن انهزموا ، قال البراء بن عازب : فأكبتنا على الغنائم ، فخرج علينا من كانوا كامنين في الشعاب والمضايق واستقبلونا بالسهم ، فولينا مدبرين لا يلقى أحد منا على أحد .

وقد بلغ بعض المنهزمين في تقهقرهم مكة ، وأخبروا أهلها ففرحوا ، وكانوا لا يزالون على شركهم ، فكان ذلك مدعاة لظهور ما أكنه الناس في قلوبهم ؛ فقال بعضهم انتهى أمر الإسلام وغدا يرجع العرب إلى دينهم الأول ، فإن هذه الهزيمة لا تقف دون البحر . وقال هشام بن كلداء وكان أخا لصفوان بن أمية لأمه : بطل سحر محمد ، فقال له أخوه صفوان ولم يكن قد أسلم بعد : أسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يرثني (أى يملكنى) رجل من قريش أحب إلي من أن يرثني رجل من هوازن . ومر بصفوان هذا رجل فقال له أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجيرونها أبدا ، فغضب صفوان وقال : « أبشرنى بظهور الأعراب ؟ فوالله لرب من قريش (أى ملك من قريش) أحب إلي من رجل من الأعراب » .

أما المسلمون الصحيحو الإسلام منهم ، فثبتوا منتظرين ما يحدث بعد هذه الهزيمة ، معتقدين أن هزيمة محمد ليس معناها زوال دين الله من الأرض ، فإن الله لا شك مظهره على الدين كله ، كما وعد بذلك ولو كره الكافرين . وهذا الرأي يتراءى في رد عكرمة بن أبى جهل على من قال : والله لا يجيرونها أبدا ، فإنه قال له : « ليس هذا لك ولا بيدك ، الأمر بيد الله ، ليس إلى محمد منه شيء ، إن ديل عليه اليوم (أى إن كانت الكرة عليه اليوم) ، فإن له العاقبة غدا » .

ماذا كان من أمر رسول الله حيال هذه الهزيمة ؟

انهزم جيش المسلمين ولكن النبي ﷺ ورجاله من أركان حربه وعددهم ثلاثمائة وقيل ثمانون ، وقيل بل عشرة ، لم ينهزموا ، وبقي عليه السلام على بغلته يدفعها نحو جموع الأعداء ، ويكفها عن المضى بعض أصحابه خوفا عليه من الردى . فعن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله يوم حنين فولى الناس وبقيت معه في ثمانين رجلا ، قمنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة (كما

(ورد في الآية) ورسول الله على بغلته ، وكان العباس عمه آخذاً بلجامها يكفها أن تتقدم في نحر العدو ، والثانون منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسامة بن زيد وربيعه بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب وأمين ابن أم أمين وغيرهم ؛ وكان النبي ﷺ وهو في تلك الحالة ، والناس يولون الأدبار حواليه سراعا لا يلوون على شيء ، يناديه قائلًا : إلی أيها الناس ، فلم يجد سميعاً . فقال لعنه العباس وكان جهورى الصوت : صح بالناس قائلًا يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمرَةِ (أى الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان) ، يا للمهاجرين الذين بايعوا النبي تحت الشجرة ، فما طرقت هذه الصيحات أذننى واحد منهم حتى سارع إليه قائلًا : ليك ليك ، وسيوفهم مصلته في أيديهم تلمع كالشهب ، فأمر رسول الله أن يصلحوا الحملة على المشركين ، فأجابوه واندفعوا على المشركين كالسيل العرم ، وما هى إلا ساعة حتى ولى المشركون الأدبار ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فما أمسى المساء حتى طار الخبر إلى مكة بأن النبي انتصر على أعدائه ، ففرح بذلك المؤمنون ، وحزن المشركون .

ولما كلمه بعضهم في معاقبة الفارّين أجاب : بأن الله قد كفى وأحسن ، كما قال تعالى في أمر هذه الواقعة : « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ثم أمر النبي ﷺ بجمع النساء والأطفال الذين تركهم أزواجهم وآبائهم وفروا طالبين النجاة ، والاستيلاء على ما تركه العدو من سائمته وأمواله ، وقد أحصيت فبلغت أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق ، لحقت إحداها بالطائف ، ولاذت الثانية بنخلة ، وعسكرت ثالثها بأوطاس (وهو واد بديار بنى هوازن) .

كان أكبر أثر لهذا الانتصار العظيم سحق النزعة الاستقلالية الأعرابية حقاً تاماً ، فإن القبائل التى كانت ضاربة في وديان بلاد العرب وشعابها ، كانت تعتبر

نفسها مستقلة كل الاستقلال عن جاراتها ، ولذلك كانت في خصام مستمر موروث لا عهداً له نار ، ولا ينقطع لها أوار ^(١) ، فلما رأت بقية القبائل ما حل بهوازن وهي من أكبر قبائل العرب ، وأعزها مكانا ، اضطرت أن تقبل إلى النبي ﷺ مستسلمة ، قابلة أن تخضع لحكم الإسلام وما يفرضه عليها من التكاليف والتبعات ، كأعضاء أمة واحدة ، متكافلة الأجزاء ، متكاملة الأبعاد ، لتؤدي للمجموع البشرى من الخدم الاجتماعية ما يجب على كل جزء منه أدائه ، جهادا وراء وصول الإنسانية إلى ما قدر لها من وجود كريم ، يناسب ما منحتها من المواهب النفسية والعقلية .

هذه الحركة الاجتماعية التكافلية من القبائل العربية لم تحصل في أى عهد من عهود الأمة العربية . فإن ما يرويه الراون من مدنية بعض قبائلها كعاد وثمود وغيرها ، كانت حركات قبيلية محضه ، مقتصرة على أصحابها ، ولم تتعد سواها ، فلم تقم للاجتماع العربى شخصية أدبية عامة إلا بواسطة الإسلام الذى بُعث به محمد على فترة من الرسل ليكون ديناً عاماً ، ورباطاً أدبياً شاملاً للعالم كله .

أما الهزيمة التى ألمت بالمسلمين فى هذه الوقعة فقد علّلتها الكتاب الكريم بتلك الحركة النفسية ، وهى الإعجاب بالكثرة ، عدولا منهم عن السبب الصحيح فى بناء وجودهم ، وهو التأييد الإلهى لا الأسباب العادية ، فاستحقوا على ذلك ، تجريداً لإيمانهم من شوائب الخلط بين العمل الإلهى المعجز ، والعمل الإنسانى الممكن : أن يוכלوا لأنفسهم ، فانهزموا على كثرتهم ، ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا لَقِيتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ ^(٢) .

نعم إن الإسلام أمر بالأخذ بالوسائل العادية ، للنجاح فى المطالب الحيوية ، ولكنه أراد أن يتبّه حمة الإسلام لآخر مرة ، أن هذه الوسائل العادية ليست هى السبب فى وجودهم الاجتماعى ، ولا فى نجاحهم فى إقامة الصرح الإسلامى ، فإن هذا العمل الضخم الذى لا مثيل له فى جميع أدوار التاريخ البشرى ، لا يعقل أن

(١) الأوار بضم الألف هو الدخان أو اللهب .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٦٣) .

يتم بالوسائل العادية ، فلم تجر العادة بأن فردا واحدا يقوم في أمة وثنية ، مزقت أوصالها الحياة القبلية ، وتغلغلت في أحشائها العادات الجاهلية ، فينجح في دعوتها إلى حياة اجتماعية تكافلية عالية ، تعتبر أرفع من كل ما وصل إليه البشر ، وذلك على الرغم مما جبلت عليه من العقائد والعادات والتقاليد قرونا متوالية ويجعل منها فوق ذلك أمة مثالية ، تحمل علم المثل العليا في كل ضرب من ضروب المقومات الأدبية والمادية للنوع الإنساني ، ويحدث بسببها في العالم كله حركة إصلاح لا تزال مستمرة إلى اليوم ، ولن تزال كذلك حتى يبلغ العالم الشأوا الذي أعده الخالق لبلوغه .

على أن الذي يتدبر في انتصار المسلمين في وقعة حنين بعد تلك الهزيمة المنكرة ، يدهش كل الدهش من حدوثها على غير السنن الطبيعية . فإن تصدع جيش برمته ، مؤلف من عناصر غير متجانسة ، وإركانه إلى القرار من وجه العدو ، حتى بلغت فآلته المدينة التي خرج منها ، وانكشف جموعهم عن قائدهم الأعلى حتى صار ، وهو ممتط ظهر بغلة ليست من مطايا الكر والفر ، على مرمى سهم من العدو الذي ثمل بخمرة النصر ، وحميت نفسه على البطش بخصمه ، قلنا إن الذي يتدبر كل هذا ويقدره قدره تحت ضوء السنن الحربية ، يرى أن كُرَّةً من طائفة أو طوائف محدودة العدد ، كالتى عناها العباس في صيحاته ، لا تكفى للتغلب على عشرات ألوف من المقاتلة ذاقوا باكورة النصر ، ووراءهم نساؤهم وأولادهم يطالبونهم بالحماية ، وكل ما يملكونه من حاجات العيش يهددهم ضياعه بفاقة ليس وراءها فاقة .

هذا كله لا يعقل إلا بتأييد إلهي ، وهو الذى عناه الكتاب بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ^(١) ، هذه الجنود ملائكة أى أرواح عالية نفثت في رُوعهم فضائل الثبات والاستبسال والتضحية . وما حدا الكتاب للتنويه بهذه الجنود إلا لما حدث من هذا الانقلاب المدهش ، فلو كان الأمر قد جرى على مقتضى السنن المعروفة ، لما كان من حاجة إلى ذكر إرسال هذه الجنود ، بل لكان ذكرها مشككاً للذين نزلت إليهم ، فإن ذكر الإعجاز في مواطن الأمور الممكنة يؤدي إلى عكس

ما يراد منه .

وهناك أمر جدير بالنظر وهو أن النبي ﷺ كان محتطاً صهوة بغلة ، وهي لم تسعف راكبها بالسرعة التي تقتضيها الحال إذا جد الجدد في ساحات الوغى ، وأعجب من هذا ثباته وهو في وجه العدو ، بل محاولته الهجوم على جيش لجب لم يُؤمن المسلمون بمثل كثرة عدده منذ عهدهم بالإسلام . هذا كله فوق قدرة البشر ، ولا يمكن تعليقه إلا بثقته المطلقة في حفظ الله له كما وعده بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ^(٢) . وهذا أيضا يضاف إلى أعلام نبوته وهي كثيرة تخرج عن الحصر ^(٣) .

(١) سورة المائدة ، من الآية (٦٧) .

(٢) سورة غافر ، الآية (٦٧) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء السادس ، جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ .

تَعَقَّبَ قُلُولَ هَوَازِنَ وَثَقِيفَ

قلنا في الفصل السابق إن فآلة جيش هوازن وثقيف تفرقوا ثلاث فرق : نزلت أولاهها بالطائف ، وثانيها بنخلة ، وثالثها بأوطاس .

فأرسل النبي ﷺ إلى التي بأوطاس (سرية) تحت قيادة أبي عامر الأشعري ليبدد شملهم فتوفى في المعركة ، وخلفه في القيادة أبو موسى الأشعري ابن أخيه ، فرجع بما أصاب من الغنائم ، بعد أن تفرق الأعداء شذر مذر .

ورأى رسول الله أن يسير بنفسه لقتال بني ثقيف يبلدتهم (الطائف) ليفضّ جمعهم هم ومن انضم إليهم من بني هوازن . فجعل على مقدمته خالد بن الوليد . فمر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك ، فأمر بهدمه ، ويستأنزل رجلاً من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل إليه بأن يخرج وإلا أمر بإحراق البستان ، فأبى الرجل ، فأمر النبي بإحراق البستان .

ولما وصل الجيش إلى الطائف وجد المسلمون أن الأعداء قد حصنوا أنفسهم فيه ، واختزنوا معهم مقادير من الزاد تكفيهم مدة طويلة ، وما فتئوا يرمون المسلمين بسهامهم حتى أصابوا كثيراً منهم ، فأصيب محمد بن أبي بكر بسهم لم يزل يطاوله حتى قضى عليه في خلافة أبيه ، وأصيب أبو سفيان بن حرب بسهم في عينه ففقأها . ومات اثنا عشر من المسلمين متأثرين بجروحهم .

فلما رأى رسول الله أن أصحابه على مرمى السهام من أعدائهم ، انتقل إلى موقف يحتمون فيه من شرهم ، وبقي محاصراً لهم ثمانية عشر يوماً ، كان خالد بن الوليد في أثناءها يدعوهم إلى المبارزة فلا ينزل إليه أحد ، وناداه عبد يا ليل رئيسهم قائلاً : « لن ينزل إليك منا أحد ، وسنقيم بحصننا حتى ينفد ما معنا من الزاد ، وهو يكفيننا سنين عدة ، فإن لبثت حتى ينفد زادنا خرجنا إليك جميعاً ، وقاتلناك حتى نموت عن آخرنا » .

فأمر رسول الله بأن ينقب عليهم الحصن بواسطة دبابتين ، والدباباة عندهم كانت عربة مغطاة يقف تحتها الجنود ليحتموا من النبل ، ويعملوا على نقب سور

الحصن ، وعزز ذلك بالمنجنيق ليقذفهم بالحجارة ، وهى أداة كانت تقوم مقام المدفع اليوم ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فلم يقو المسلمون على الثبات أمامها لنقب الحصن .

فرأى رسول الله أن يعمد إلى قطع نخلمهم وأعتابهم ، فمضى المسلمون في قطعها ، فناداه أهل الحصن قائلين : دَعَهَا لله وللرحم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أَدْعُهَا لله وللرحم » .

ثم أمر مناديا أن ينادى : كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن . فخرج إليه بضعة عشر رجلا .

فلما آنس النبي أن أمرهم شديد المراس ، استشار أحد أصحابه ، نوفل بن معاوية ، في أمرهم ، فقال : « يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك » . فأمر عليه السلام برفع الحصار عنهم والعودة إلى مكة .

وقبل أن يصل إليها اتصل به عروة بن مسعود الثقفى في الطريق وأسلم على يده ، وانتدب أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام . فقال له رسول الله ﷺ : إنهم قاتلوك ، فقال يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وانطلق . فلما أتى الطائف وأبدى لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه . وبعد شهر من مقتله أدركوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من الأعراب الذين دخلوا في طاعة النبي ﷺ ، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا له رجلا من أعيانهم يكلمه في شأنهم . فوقع اختيارهم على رئيسهم عبد يا ليل بن عمرو أن يقوم بهذه السفارة . فأتى أن يذهب إلى النبي وحده ، وطلب أن يكون معه رجال منهم ، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم . فخرجوا متوجهين إلى المدينة . ولما لاقوا رسول الله ﷺ أمر فضربت لهم قبة في ناحية المسجد لسمعوا القرآن ، ويروا الناس وهم يصلون ويتعبدون . وكانوا يقدون إلى المسجد كل يوم ، ويتركون في رحالهم واحدا منهم كان أصغرهم سنا يدعى عثمان بن أبى العاص ، وكان شابا نجيبا ، فكان إذا عادوا إلى رحالهم ، ذهب هو إلى النبي وطلب إليه أن يقرئه القرآن ، فإذا اتفق أن وجده نائما ، عمد إلى أبى بكر فطلب إليه ذلك ، حتى حفظ شيئا كثيرا منه ، وتعلم مبادئ الدين ، وكان يكتم ذلك عن صحبه .

بعد ما تم هؤلاء الرجال معرفة ما عليه المسلمون من سمو العقيدة ، وروعة العبادة ، وبعد أن تأثروا بآيات الكتاب البينة ، ووضحت لهم محجة الإسلام القيمة ، أسلموا وطلبوا أن يعين لهم النبي ﷺ من يأتمون به ، فاختار لهم عثمان ابن أبي العاص الذي مر ذكره لما رآه فيه من حب الإسلام ، وإخلاصه له ، ليحفظهم ما هم في حاجة إليه من آيات القرآن ، ويعلموا ما يجب أن يعلموه من تكاليف الإسلام .

تقسيم الغنائم على المقاتلين :

قلنا إن المسلمين غنموا في هذه الغزوة عددا كبيرا من الأنعام والماشية ، ومقادير عظيمة من الفضة ، فرجع النبي ﷺ بعد فراغه من المعركة إلى الجعرانة حيث ترك هذه المغنم ليوزعها على المحاربة ، فقسمها إلى خمسة مقادير وأخذ واحدا لبيت المال ، كما هي القاعدة في توزيع الغنائم الحربية ، وأعطى الأربعة الأخماس الباقية للمحاربين ، ولم يعط الأنصار وهم أهل يثرب شيئا منها . فأصاب الراجل أربعة من الإبل وأربعون شاة ، وأصاب الراكب ثلاثة أمثال ذلك . فقال رجل ، ولعله كان منافقا وقد كانوا كثيرين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فغضب رسول الله حتى احمر وجهه . فاستأذنه عمر وخالد بن الوليد أن يضربا عنقه . فقال : لا ، لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : كم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال النبي : إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أن أشق عن بطونهم . وزاد النبي في أعطيات بعض الناس ، فأعطى لكل من أبى سفيان وولديه يزيد ومعاوية أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل .

وأعطى حكيم بن حزام من سادة قريش ، مثل ما أعطى أبى سفيان . فاستزاده حكيم . فأعطاه النبي مثلها . فاستزاده ثانية ، فأعطاه مثلها أيضا . ثم قال له : « يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس ، بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » . فأخذ حكيم النصيب الأول وترك ما عده ، ثم قال : « والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا » . فكان الخلفاء

بعد النبي ﷺ يعطونه ما يخصه سنويا من بيت المال ، فكان يرده .

وأعطى رسول الله لكل من الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس مائة من الإبل .

وأعطى صفوان بن أمية ، ولم يكن قد أسلم بعد ، شعبا مملوفا نعمة وشاء كان رآه يرمقه . قال له : هل يعجبك هذا ؟ قال نعم . فقال النبي ﷺ هو لك . فقال صفوان : ما طابت بمنثل هذا نفس أحد ؛ ولم يسعه إلا أن أسلم .

كل هذا كان من باب السياسة الشرعية ، فقد شرع الله أن يعطى من المال لغير المسلمين تألفا لهم . وقد أثمرت هذه السياسة . فأصبح الذين أجزل لهم النبي ﷺ العطاء من أجلاء المسلمين .

ولما شرع رسول الله في قسمة ما بقى من الغنيمة اكتظ حوله الأعراب ، وصاروا يزحمونه حتى ألجأوه إلى شجرة ، فتعلق رداؤه بغصن من أغصانها فقال : « أيها الناس رُدُّوا على رداي فوالله إن كان لي عدد شجر نعاما لقصته عليكم ، ثم ما ألفتيموني بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » ، ثم عمد إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال : « أيها الناس والله مالى من غنيمة ولا هذه البرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيائط والمخيط فإن الغنول (أى الاختلاس من الغنيمة) يكون على أهله عارا وشنارا ونارا يوم القيامة ، فصار كل من أخذ شيئا من المغنم خلصة يرده ولو كان تافها .

ولما أعطى النبي هذه العطايا للناس وترك كبار المهاجرين والأنصار ، غضب بعض هؤلاء ، فجمعهم وقال لهم : « إن قرشنا حديثو عهد بكفر ، وإنى أردت أن أتألفهم ، أفنغضبون يا معشر الأنصار لشيء قليل من الدنيا ألقت به قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالنشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم ، وقالوا : « رضينا برسول الله قسما وحظا » .

ثمرات هذه السياسة الحكيمة :

قلنا فيما سلف إن العرب قسمان : قسم يسكن المدن وقسم يسكن البوادي ، وقد أطلقوا على الأولين كلمة (عرب) وعلى الآخرين كلمة (أعراب) . سكان المدن عادة يكونون على شيء من النظام والمدنية ، وعلى جانب من القابلية للحياة الاجتماعية ، مهما كان جنسهم مغموسا في حمأة الجاهلية . دليل ذلك أن النبي ﷺ لما استعصت عليه قريش ، وعرض الإسلام على القبائل المتبدية ، لم يجد واحدة منها تقبل مناصرته ، وقبل أهل يثرب الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة ، ويثرب كانت مدينة ، فالنبي ﷺ بما آتاه الله من حكمة النبوة ، وبعد النظر ، أدرك هذه الحقيقة فحرص أن ينضم إلى دعوته أهل المدينتين مكة ويثرب ، والإسلام دين أساسه حياة اجتماعية ، وخضوع لأصول أدبية ، وقوانين نظامية ، وأين هذا كله من أقوام حياتهم ساذجة ، يعيشون في الخيام ، وينزحون بها عندما ينيو بهم المقام في بقعة من الأرض ، إلى بقعة أخرى ، بما معهم من النعم والماشية ، لا يبالون أين تقرر عصاهم من نواحي بلادهم المترامية الأطراف ؛ وقد نزل القرآن مؤيدا لهذا النظر الصحيح ، فقال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا (أى يعتبر ما ينفقه في سبيل إقامة الإسلام غرامة عليه) وَيَتَّقِرُّ بِكُمْ الدُّوَائِرُ (أى يربص أن يفسد أمركم وتذهب دولتكم ليخلص من تكاليفكم) ، عَلَيْهِمْ ذَاتَرُ السُّوءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد ظهر مصداق ذلك كله بعد وفاة النبي ﷺ ، فإن أكثر القبائل ارتدت عن الإسلام ، وعادت إلى جاهليتها ، واستعدت لقتال كل من يتصدى لها ، وبقي أهل المدينتين ثابتين على إسلامهم ، فقاموا على قلة عددهم يرد تلك القبائل إلى الإسلام بالقوة ، ونجحوا في ذلك بتأييد من الله ، إبقاء على هذا الدين من التلاشي ، وقد أعدده الله لإحداث أكبر الانتقالات العمرانية في العالم ، كما وعد أهله بذلك في

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (أى من الدول الكبرى ذات الآثار الخالدة فى الأرض) ، وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْعًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿ ١٧ 〉 .

إذا تقرر هذا فإن ما فعله النبى ﷺ من تأليف كفار قريش بالمال ، وحرمان أنصاره الأولين منه يعتبر من أكيس ما يفعله صاحب دعوة فى العالم يعرف كيف يجمع القلوب على تأييدها .

* * *

لا يبدوون إلى ذهن بعض القراء أن المجتمع الإسلامى قام على تصيد الأنصار بالمال أو بالإرهاب أو بغيرهما من الوسائل المادية التى تستهوى النفوس ، وتستولى على الأهواء ، فإن نظرة عجيلى على ما حدث فى هذه الواقعة ينفى ذلك نفياً بدليل محسوس . ذلك أن النبى ﷺ أعطى الأموال التى غنمها إلى الذين كانوا لا يزالون مشركين ، والذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وحرّم منه أنصاره ومؤيديه الذين حصل له هذا المال باستماتتهم فى نصرته ، وتعرضهم لأفدح الأهوال فى تأييد دعوته . فلو كان أمر المجتمع الإسلامى قائماً على هذه الأعراض الزائلة لكفى هذا العمل فى حل جماعته ، أو على القليل لحدثت فتنة تعرض وجودهم للخطر . وقد شوهد أنه لم يحدث شيء من ذلك .

على أن من يرجع للتعاقد الذى حدث بين رسول الله والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب ، يرى أنهم لم يعطوا مقابلاً لجهادهم غير ثواب الآخرة . فإنهم لما اجتمعوا فى المزيغ الأخير من الليل فى بعض شعاب مكة ، وعرض عليهم النبى ما يطلب منهم أن يذلولوه من التضحيات فى سبيل الإسلام ، سألوه : وما لنا على ذلك يا رسول الله : فقال لهم : الجنة . فأجابوه رضينا بذلك وانصرفوا .

باعتقالمهم في داررملة بنت الحارث .

وفود تميم على رسول الله :-

ما كاد هؤلاء الأسرى يصلون إلى المدينة ، حتى جاء على أثرهم وفد من بنى تميم على رأسه عطارذ بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، من أشرفهم ، فجلسوا ينتظرون خروج رسول الله إليهم ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجراته التي كان يقيم فيها : « يا محمد اخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زين ، وإن ذمنا شين » فخرج إليهم الرسول وقد تأذى من صياحهم ، وكان الوقت ظهراً ، فأذن بلال ، واتجه النبي إلى الخراب ليصلي بالناس ، فتعلق رجال الوفد به وهم يقولون : « نحن رجال من بنى تميم جئنا بشاعرا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك » . فقال لهم رسول الله : « ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا » ثم مضى وصلى الظهر وهم ينظرون .

فلما أتم ﷺ اجتمع إليه رجال ذلك الوفد وأخذوا يتمدحون بمفاخرهم ، ومناقب آبائهم . وتكلم عمرو بن الأهتم فمدح الزبرقان بن بدر ، فقال فيه : « إنه لمطاع في أنديته ، سيد في عشيرته » .

فقال الزبرقان : « لقد حسدني ابن الأهتم لشرفي ، وهو يعلم مني أفضل مما قال » .

فالتفت عمرو بن الأهتم إلى رسول الله وقال : (إنه لزم من المروعة ، ضيق العطن ^(١)) ، لئيم الخيال) ، فرأى الغضب في وجه رسول الله لتلون عمرو بن الأهتم في قوله . فقال عمرو بن الأهتم : « لقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الثانية ؛ رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت » . فأعجب رسول الله بتخلصه من تناقضه وقال : « إن من البيان لسحرا » .

(١) الزمانة العاهة : يقال فلان زمن المروءة ، أو زمن الرغبة أى ضعيفها . والعطن مناخ الإبل والغنم وفلان ضيق العطن أى فقير .

ثم انتهى الأمر بإسلام القوم ، فرد رسول الله عليهم أسراهم ، وأحسن عائلتهم . ثم مكثوا بالمدينة مدة يتعلمون فيها القرآن ، ويتفقهون في أمور الدين ، ليعلموا قومهم متى عادوا إليهم .

إن الذى يتأمل فى عقبة هؤلاء القوم يدرك الصعوبة البالغة التى تحول دون نشر دعوة دينية فى أمثالهم . إن غرضهم من مجيئهم كان تحرير أسرى أخذوا منهم بحرب ، فأين هذا من طلب المفاخرة والمنافرة من الغالب ؟ فما أسرع ما يلحس المتأمل فى هذا وأمثاله مكان الإعجاز فى عمل النبي ﷺ فى بلاد كانت تغص بأشباههم .

إن جاهلية هؤلاء القوم التى حملتهم على استعجال رسول الله لينزل إليهم بالصياح المزعج من وراء حجراته قائلين : يا محمد انزل إلينا نفاخرك إلخ ، نزل قرآن فى استهجانهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُّونَكَ مِنْ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، فسلب من أكثرهم العقل ، أليس فى اتهام زميل بالحدس فى ظرف كالذى كانوا فيه ما يؤيد معنى هذه الآية .

السرية الثالثة :-

بعث النبي ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لتحصيل زكاة بنى المصطلق ، فلما علم القوم بقنومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين أسلحتهم حفاوة منهم باستقبال وفد رسول الله ﷺ ، ومعهم الإبل التى أخرجوها للزكاة . فلما وقعت عين الوليد بن عقبة عليهم ، ظنهم يريدون قتاله ، وقد كان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فأسرع بالعود إلى المدينة ، وأخبر رسول الله ﷺ بأنهم ارتدوا عن الإسلام ومنعوه الزكاة ، وأقبلوا لمحاربتة .

فاضطر النبي ﷺ أن يقابلهم بالمثل بعد التثبت من حالهم ، فندب لذلك

(١) سورة الحجرات ، الآيات (٤ ، ٥) .

وقد نزل في ذلك قرآن فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ^(١) ، فهو لم يشتري منهم أنفسهم فحسب ، بل وأموالهم أيضا مقابل أن يتفضل الله عليهم بالجنة .

من هنا يتبين أن هذا الدين قام على أثبت ما يقوم عليه بناء مجتمع ، وهو الإيمان مجردا عن المطامع الدنيوية ، وهذا سر بقائه إلى اليوم أيضا ^(*) .

★ ★ ★

(١) سورة التوبة ، من الآية (١١١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٦٢ هـ .

علامات تصدع الوثنية في البلاد العربية خمس سرّيات ووفدان

بعد أن أتم رسول الله ﷺ حرب بني هوازن وأوق ما ذكرناه في العديدين الماضيين من النصر الحاسم عليهم ، وقد قلنا إن تلك المعركة كانت فاصلة بين الإسلام والوثنية في جزيرة العرب ، عاد رسول الله من معسكره بالجرانة إلى مكة ، ثم إلى المدينة بعد أن لبث فيها ثلاث عشرة ليلة ، وكان ذلك لثلاث بقين من ذى القعدة .

أما علامات التصدع في صرح الوثنية فقد يبدو جليا للرأى من أخبار السرايا والوفود في هذه الفترة من الوقت بين السنة الثامنة والحادية عشرة ، وهي السنة التي انتقل فيها رسول الله إلى الملأ الأعلى .

السرية الأولى :-

لما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ندب قيس بن سعد على رأس أربعمائة مقاتل لدعوة بني صداء إلى الإسلام وهي قبيلة كانت تسكن اليمن . وما كادت تمتد هذه السرية للصير حتى أقبل رجل من صداء وقابل رسول الله وقال له : يا رسول الله إني جئتك موقدا ممن ورائي من قومي ، فأردد الجيش وأنا لك بقومي . فأمر رسول الله برّد الجيش . وشخص الرجل إلى قومه ، ثم أقبل ومعه خمسة عشرة رجلا منهم ، فنزّلوا ضيوفا على سعد بن عباد ، ثم قابلوا النبي ﷺ وبايعوا على الإسلام ، وقالوا له نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام ، وأقبل منهم مائة رجل في حجة الوداع .

السرية الثانية :-

ثم أرسل رسول الله ﷺ بشر بن سفيان العدوي إلى بني كعب بن خزاعة لتحصيل زكاة أموالهم ، فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء مهمتهم ، فأرسل إليهم النبي ﷺ عينة بن حصن على رأس خمسين فارسا ، فجاءهم وقتلهم ، واقتاد منهم أحد عشر رجلا وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وأقبل بهم إلى المدينة ، فأمر النبي

خالد بن الوليد في عدد من الجند ، فسار حتى إذا كان بمحلتهم سمع مؤذنه يؤذن الصبح ، فأقبل عليهم ، فلم ير منهم ما يؤخذون عليه من كفر أو عصيان ، فعاد وأخبر رسول الله بما رأى ، فأرسل إليهم رجلا في نفر فحصل منهم زكاة أموالهم دون أن يحدث شيء من الشغب .

السرية الرابعة :-

نمى إلى رسول الله ﷺ أن رهطاً من الحبشانيين يحومون حول جدة على سفن يريدون الإغارة عليها ونهبها ، فأرسل إليهم علقمة بن مجز في ثلاثمائة من الجنود . فلما وصل إلى جدة اقتحم البحر على سفن وقصد إلى جزيرة كان الأبحاش متحصنين بها هنالك ، فلما رأوا المسلمين مقبلين إليهم فروا . فعاد علقمة بمن معه من الجنود ، وبينما هم بالطريق أراد جماعة أن يتعجلوا الوصول إلى المدينة ، فأمر عليهم علقمة ابن مجز واحدا منهم اسمه عبد الله بن حذافة السهسي ، وكان يحب المداعبة ، فأمر رجاله في بعض الطريق أن يشعلوا نارا عظيمة ، ففعلوا ، ثم التفت إليهم وقال : أليس عليكم أن تطيعوني في كل ما أمركم به بوصفى أميرا عليكم اليوم ؟ قالوا نعم . قال فإني أمركم أن تلقوا بأنفسكم في هذه النار . ففعلوا وحدث بينهم ما يحدث حيال أمر شنيع كهذا ، فأغرق رئيسهم في الضحك وقال لهم لا بأس عليكم ، إني كنت مازحا . فلما أخبر بذلك رسول الله استنكره ، ونطق بهذا الأصل الاجتماعي العظيم وهو قوله : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

السرية الخامسة :-

في شهر ربيع الأول من السنة التاسعة أرسل النبي ﷺ على بن أبي طالب في خمسين فارسا لهدم صنم بنى طيء ، فسار إليه وحطمه ثم أحرقه ، ولكن رجالا من بنى طيء لم يستطيعوا تحمل هذه الإهانة فاندبوا لقتال سرية رسول الله ، ولكنهم انهزموا فاستاق المسلمون شاةهم ونعمهم ، وعددا من نسائهم منهم سفانة بنت حاتم الطائي المشهور .

فلما رجعت السرية إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمن عليها بالحرية ، فأجابها إلى ما طلبت وأكرمها : قيل وكانت هذه المعاملة سببا في إسلام

أخبرها عدى بن حاتم ، وكان قد فر إلى الشام بدينه ، لأن كان قد تنصّر قبل البعثة الحمديّة . ذلك أن أخته توجهت إليه بالشام وأخبرته بما حظيت به من إكرام النبي لها . فسألتها عن رأيها فيما يفعل ، فقالت له : أرى أن تلحق بمحمد ، فإن كان نبيا كان لك فضل السبق ، وإن كان ملكا فأنت أنت . فعمل بإشارتها .

وفود عدى بن حاتم الطائي على رسول الله :

وقد عدى بن حاتم على النبي ﷺ ، فأخذه إلى داره ، وبينما هما يمشيان ، استوقفت امرأة رسول الله ، فوقف لها طويلا وهي تكلمه في حاجة لها ، فأعجب عدى في نفسه لهذا التواضع وقال ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل داره تناول وسادة من جلد محشوة ليفا ، فقدمها إلى عدى وقال له إجلس عليها ، فقال بل أنت تجلس عليها ، فامتنع رسول الله وردها إلى عدى وجلس هو على الأرض . ثم قال يا عدى أسلم تسلم . فقال عدى إلى علي دين ، فقال له النبي : أنا أعلم بدينك منك . فقال عدى : أنت أعلم بديني مني؟ فقال له النبي نعم ، وعدد له أشياء كان يفعلها مجارة لجاهلية العرب وليست من النصرانية في شيء ، كأخذ الزباج وهو ربع الغنائم .

ثم قال كما رواه أصحاب السير : يا عدى إنما يمنعك من الدخول في الإسلام ما ترى : تقول إنما اتبعه ضعاف الناس ، ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم . أتعرف الحيرة ؟ قال عدى : لم أرها وقد سمعت بها . قال النبي ﷺ : فوالله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم .

فأسلم عدى بن حاتم وعاش حتى رأى كل ذلك .

نقول وما قاله النبي ﷺ كله من اتساع ملك المسلمين ، وتضخم دولتهم ، موجود بالمعنى في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ .

نزلت هذه الآية لما قال بعض المسلمين : ترى هل يؤمننا الله على أنفسنا حتى يصلى أحدهنا لا يخاف أن يراه أحد فيطش به ؟ وقد كان أحدهم إذا صلى خشي أن يراه أحد فيقصده بسوء . وهذا الوعد من أعلام النبوة ، فإن التنبؤ بأن هذه الفئة القليلة ستكون لها دولة في الأرض تؤهلها أن تكون لها الخلافة فيها كما كان للفرس والرومان ، وتحقق ذلك يعتبر من أكبر المعجزات المثبتة حسيًا بحيث لا يمكن أن ينكرها إنسان (*) .

★ ★ ★

(١) سورة النور ، الآية (٥٥) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٦٢ هـ .

المسلمون يزحفون لغزو الرومانيين في بلادهم

من محارات العقول في الأحداث الاجتماعية أن دولة لا ترى سنها على العشرين سنة ، تزحف لملاقاة أكبر امبراطورية قامت في الأرض ، لتردعها عن فكرة الغزو التي كانت تطوف بخيالهم لجماعتها في بلادهم .

إن مجرد خطور فكرة من هذا القبيل لمجتمع صغير ، وخاصة وهو في الحالة التي كان عليها المسلمون في ذلك الظرف من الزمن ، كان يعتبر من موجبات الدهش والذهول .

دولة تستطيع أن تقذف في حومة الوعي بمئات الألوف من المقاتلة المغاوير ، مسلحين أكمل تسليح ، ووراءهم مدد لا ينضب من الرجال والعتاد ، تنقصدها في عقر دارها قبضة ^(١) من الرجال ليس لهم من الوسائل الحربية ما يساوى شيئا يذكر بجانب ما لخصومهم ، فضلا عن المزية التي لعدوهم ، وهي أنه يقاتل قريبا من موارد قموينه وتسليحه ، وهم على مسافة شاسعة من بلادهم ، تقطعها المهارى واليعملات ^(٢) في أيام طويلة ، لعمري إن مجرد التفكير في غزوة من هذا القبيل تعتبر من البطولة ، فما ظنك بالخفوف إلى تنفيذها ، والزحف إلى بلاد العدو لتحقيقها ؟

كان هذا مثيرا لعجب المنافقين ودهشهم ، حتى أن زعيمهم بالمدينة ، عبد الله بن أبيّ ، نسب إليه أنه قال : « يغزو محمد بنى الأصفر (يريد الرومانيين) مع جهد الحال والحر ، والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه للعب ، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال » !

نورد الآن تاريخ غزوة تبوك ، وهي التي وُجهت ضد الرومانيين ، فنقول :

(١) ملء الكف كالقبضة بالضاد .

(٢) اليعملات جمع بعملة ، بفتح الياء والميم : هي الناقة النجبة المطبوعة على العمل .

نُعى إلى رسول الله ﷺ أن الروم يهيمون بغزوه في بلاده ، وكانت الحالة العامة في ذلك الوقت لا تسمح بالحرب ، فكان القِيظ شديدا ، والإعسار المالى منيخا بكلا كليه على الناس ، وقد آذنت الأشجار بأن تؤثى أكلاها ، وأحب ما إلى القلوب في مثل هذه الحالة أن يجنى الناس ثمارهم ، ويتمتعوا بالسعة بعد ذلك الضيق ؛ ففوجيء المسلمون وهم على ما نذكر بالنفير العام .

وأرسل النبي ﷺ إلى أهل مكة والأعراب ، وهم سكان البادية ، يستنفرهم للحرب .

ولما كانت الحالة المالية لا تسمح بتجهيز حملة حربية ، حث رسول الله الأغنياء لبذل المعونة ، فبذل عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار ، وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين جوادا . وتنازل أبو بكر عن ماله كله ، وهو أربعة آلاف درهم . وأعطى عمر نصف ماله ، وعبد الرحمن بن عوف مائة أوقية ، وعاصم بن عدى سبعين وسقا من التمر . وأرسلت كثير من النساء بحلبين . وعبىء الجيش فبلغ عدده ثلاثين ألفا ، وتغلف كثير من المنافقين معتذرين بأعذار واهية ، فكان النبي يقبل عذرهم ، فلامه الله على ذلك في قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ (أَى بالتخلف) ، حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) . ثم قال تعالى في حقهم : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَقْرُدُّونَ ﴾ ^(٢) . ثم بين أن عدم خروجهم كان خيرا للمسلمين فقال تعالى : ﴿ لَوْ غَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا نَبْهَالًا ، وَلَأَوْضَعُوا حِجَالَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ لِنَبِّئَهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا عَدَاكُمْ لَاقِئُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ ^(٣) .

لما تمت تعبئة الجيش عين النبي ﷺ أبا بكر قائدا عاما له وسلمه لواءه الأعظم ، وعين الزبير بن العوام قائدا للمهاجرين ، وأسيد بن حضير قائدا للأوس ،

(١) سورة التوبة ، الآية (٤٣) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (٤٥) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٤٧) .

والخباب بن المنذر قائدا للخزرج (وهما القبيلتان المؤلفتان لأهل المدينة) .

لما وصل رسول الله إلى تبوك لم يجد للرومان جيشا ، وتبين له أن ما كان قد بلغه لم يكن صحيحا ، فأقام بتبوك أياما جاءه في خلالها يوحنا صاحب أيلة ، ومعه أهل قرية جُرباء ، وهي تقع جنوب الشام ، وأهل إذرُح وهي مدينة تلقاء السَّراة ؛ فصالح يوحنا على إعطاء الجزية وكتب له كتابا هذه عبارته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ، ليوحنا وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يجوز ماله دون نفسه ، وإنه لطية لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر . »

وكتب لأهل إذرُح وجرباء ما صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي لأهل إذرُح وجرباء أنهم آمنوا بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين . »

وصالح أهل ميثاء على ريع ثمارهم .

ثم استشار النبي ﷺ أصحابه في مجاوزة تبوك لمقابلة جيش الرومان حيث يجدونه .

فقال له عمر : « يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فسير » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت أمرت لم أستشر » .

فقال عمر : « يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة ، وليس في الشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا وأفزعهم دنوك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى ، أو يحدث الله أمرا » .

فتبع النبي مشورته وأمر بالرجوع إلى المدينة ، ولما كان على مقربة منها أبلغه

بعضهم أن جماعة من المنافقين أسسوا مسجدا فيها إزاء مسجدنا الذي أسسه النبي نفسه ، طلبا لتفريق كلمة المسلمين ، وتذرعا لإحداث الشقاق في صفوفهم المتراصّة . وجاءه جماعة من مؤسسيه يطلبون إليه أن يصلي فيه . فسألهم النبي عن الأمر الذي حملهم على بنائه ؟ فحلفوا بالله ما أرادوا بذلك إلا الحسنى . فلم يقبل النبي منهم ذلك ، وأمر بعض جنوده بهدمه ، ففعلوا . وقد سمى المسلمون هذا المسجد بمسجد الضّرار ، أى الضرر .

إبلاغ المشركين انتهاء مدة عهدهم :

وفي أواخر شهر ذى القعدة أرسل النبي ﷺ أبا بكر أميرا على الحجاج فخرج معهم ، وبينما هو في الطريق لحق به علي بن أبي طالب مبعوثا برسالة من رسول الله ليبلغها للناس ، وهى آيات من أوائل سورة براءة ، وكانت نزلت بعد سفر الصديق . فلما اجتمع الحجاج بمنى قرأ عليهم على تلك الآيات من أول سورة براءة مؤداها :

بطلان العهود التى قطعت للمشركين ولم يوفوا بها ، وإمّثالهم بعد ذلك أربعة أشهر ليسيروا خلالها فى الأرض لا يتعرض لهم أحد ، فإن أسلموا فى أثنائها عدوا من زمرة المؤمنين ، وإن أصروا على كفرهم بعد مضيتها سرى عليهم حكم المشركين ؛ وبأن يوفى العهد للمشركين الذين لم ينضموا إلى أعداء المسلمين فى حروبهم لهم ، ولم يغدروا بهم ، وذلك بأن تكمل لهم مدد عهودهم ؛ وأنه لا يسمح بعد ذلك العام لمشرك يخرج البيت ؛ وزيد على مؤدى الآيات بأن لا يسمح بأن يطوف بالبيت عريان . وهذا نص الآيات :

﴿ بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسَيَحْضُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ، فَاتِّمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ . فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُواهُمْ
وَأَحْصُواهُمْ ، وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ أَحَذَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتِجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى
يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ . كَيْفَ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ،
فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْمَنِي قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ
فَاسِقُونَ . اسْتَرْزُوا بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ
تُكِنُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا تَكِنُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَهُمْ يُبَاخِرُ الرَّسُولَ وَهُمْ
بَدَّأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتُحْشِنُونَهُمْ ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشِنُوهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْفِئُ صُلُوبَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ .
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ ١١ ﴾ .

السنة العاشرة الهجرية :

أول ما حدث في هذه السنة أن أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد في جنود
ليذهب إلى بنى عبد المطلب بنجران في اليمن ، وكلفه أن يدعوهم للإسلام ثلاث
مرات ، فإن أبوا قاتلهم . ففعل وأسلموا . فأقام عندهم يعلمهم الإسلام ويحفظهم
القرآن بأمر رسول الله ، ثم أمر عليهم ﷺ زيد بن حصين .

سرية ثانية :

وفي رمضان من تلك السنة أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب في جنود
إلى بنى مدحج (قبيلة بمنية) ، وقال له : « سر حتى تنزل بساحتهم ، فادعهم إلى

قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة ، ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » .

فلما وصل على إليهم دعاهم إلى التوحيد فلم يقبلوه ، وقابلوا المسلمين بالنبل ، فأمر على جنوده بالزحف عليهم ، فلما هزموهم لم يأمرهم بتعقيبهم ، ثم لحق بهم بعد قليل ودعاهم إلى الإسلام ، فأجابوه وبايعه رؤساؤهم قائلين : نحن على من وراءنا من قومنا ، وهذه زكاة أموالنا فخذها ، ففعل ، وعاد بما أخذه إلى رسول الله ﷺ .

إرسال الولاة إلى اليمن :

وفي هذه السنة بعث رسول الله بولاة من قبله على اليمن ، فعين معاذ بن جبل على الكورة العليا ^(١) من جهة عدن ، وندب أبا موسى الأشعري في الكورة السفلى ، ووصاهما بقوله : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » ^(*) .

★ ★ ★

(١) الكورة هي البقعة من الأرض يكون فيها مدن وقرى .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الرابع عشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٦٢ هـ .